Sunday 20 December 2009, Issue No. 2662
العدد 2662 الأحد 20 ديسمبر 2009 الموافق 3 محرم 1431 هـ

المرحوم الشيخ سليمان المدني في تقديمه لديوان الملا عطية الجمري

«الجمرات الودية» أتت بفنون جديدة من بحور الشعر

■ الوسط - محرر عاشوراء

☐ كتب المرحوم العلامة الشيخ سليمان المدني مقدمة مهمة للجزء الثاني من ديوان «الجمرات الودية... في المودة الجمرية»، الصادر في العام 1966، شرح فيها أهمية الشعر الحسيني الذي ابتكره صاحب الديوان المرحوم الملا عطية بن علي الجمري.

وجاء في ديباجة تقديم المدني للديوان «لقد حرت كثيرا وأنا بصدد الكتابة عن هذا الديوان، لست أدري عن أي شيء اكتب... أأكتب قصة الأدب الشعبي في البحرين والعوامل المتدخلة في سيره وتطوره، أم أكتب عن قائل الديوان وملكاته الادبية، أم تراني أريد أن اكتب تحليلا لبعض ما في الديوان من اشعار... حرت في أمري واستمرت بي الحيرة أياما ليست بقليلة وكل موضوع من هذه المواضيع الثلاثة يلاحقني ويعمل على اجتذابي إليه، فأعود لأقرأ الديوان من جديد عل قراءته تنقذني من الحيرة، ولكن الديوان يوحي إلى بهذه الفكر الثلاث مجتمعة وكأنها موضوع واحد متلاحم لا يجوز التفكيك بين أوصاله».

وتابع المدني: «إنه (أي الديوان) يقول لي... إنني آخر انتاج لأهم ركيزة من ركائز تاريخ الأدب الشعبي في هذه البلاد، وإذا أردت أن تكتب فاكتب عن تطور الأدب الشعبي خلال فكر صاحبه. وما أنا بقادر على ان أخوض الموضوع على النحو الذي يوحيه الديوان إلي ويوجبه علي، فيعود فكري لتجزئة الموضوع وتقطيع أوصاله محاولا ان يكتفي بدراسة جانب دون جانب فأقع في الحيرة من جديد».

ثم استرسل الشيخ المدني ذاكراً أنه «لم تعرف البحرين ادبا شعبيا منفصلا عن أدب الفصحى قبل بداية القرن الثاني عشر الهجري، واسبق شاعر نعرفه له بعض القطع باللغة الدارجة هو الشيخ عبدالنبي بن مانع الجدحفصي، غير انه لم يكن هو الأول في الواقع على ما أظن لان الشعر المنسوب اليه قد اكتمل انسلاخه عن اصله ولابد ان يكون قد سبق بمحاولات، ومما يؤيد ذلك بعض القطع الشعرية التي لم تقدر على الانسلاخ تماما عن اصل الفصيح»، مستشهداً بقول بعضهم:

«مطر الصيف ما في بلل
اطيح نقطه وتهدم جبل»

وأضاف «لا شك ان نشوءه كان مسببا عن عجز القائل لمتابعة قواعد الجملة العربية والجهل بالعمود ثم اخذ في التطور شيئا فشيئاً حتى صادفنا مستقلا، لانه كان بسبب عجز الشعر العربي من متابعة ألحان الموسيقيين والمغنين كما يدعي البعض».

وبيّن المدني في تقديمه أن «الإنسان يريد أن يعبر عن مقاصده النفسية باللغة ولاجل ذلك وضعها وهو دائماً وابدا يحورها ويضع لها القواعد التي تساعده على التعبير بها، فاذا زال ذلك الجيل ولم ينقل التراث اللغوي لخلفه أو تركهم يتأثرون بغيره فإنهم ولا شك سيبتدعون لهم لغة تناسب مستواهم فتبرز اللهجات المحلية للوجود، واذا طال بقاؤها وامحت أصولها أصبحت هي الفصحى وهجرت الأم، ولا أدل على ذلك من اللغات الأوروبية الحديثة المتفرعة عن اللاتينية، ولولا الدين الإسلامي ولولا القرآن الكريم لما فهم العرب اليوم بعضهم بعضا ولما عاشت العربية حية إلى هذا الحين».

وأشار إلى أنه «في أواخر القرن العاشر الهجري إلى أواخر القرن الحادي عشر الهجري كانت البحرين زاخرة بالعلم والعلماء والادباء بل كان معظم الفلاحين مثقفين وهم غير محتاجين ليلحنوا في القول أو يعجزوا عن العروض وفي أواخر القرن الحادي عشر الهجري وأوائل الثاني عشر الهجري ابتدأت البحرين تنتكس لعدم الاستقرار فيها». ورأى المدني أنه «لهذا السبب فشت الامية في البلاد وعجز أهلها من التصرف في لغتهم الأصلية وفشي اللحن في ألسنتهم فظهر هذا النوع من الشعر، ونحن لا نعرف أول من حاول ان يجعله فنا مستقلا، لأن احدا لم يحاول ان يؤرخ له من قبل، ولكننا نجزم ان استفاد من تجربة الشعوب العربية الأخرى في هذا الميدان وبخاصة العراق، كل ما نعرف ان أهم من نبغ في هذا الضرب من الادب هو الشيخ عبدالنبي الجدحفصي والسيدخليل الجدحفصي وابن فايز وهو احسائي الأصل وابن سليم وابن قنبر وملا عبدالله (البلغة) وشاعرنا صاحب هذا الديوان».

وتابع «لا يمكن ان نقارن بين هؤلاء الاشخاص فلكل منهم وجهة وطريقة تتأثر بمحيطه، الا انهم جميعا قد ساهموا في دفعه إلى الامام وترقيته وتهذيبه، غير ان أهمية شاعرنا بالنسبة لمن تقدم تظهر في ناحيتين، الأولى منهما انه معاصر لنا ولذلك فشعره مملوء بروح عصرنا ملائم لأمزجتنا، وثانيتهما انه حسب ما في هذه التجربة متميزة عن تجربة غيره من السابقين مع ما في هذه التجربة من ابداع وأصالة تكاد تجعلها كقفزة اذا ما وضعت في السلم التأريخي لتدرج هذا النوع من الادب، ولكن الشيء الذي يؤسفني كثيرا أن ألاحظه وأقوله، هو ان شخصيته القوية وتجربته الأصلية قد طغتا على شعراء هذا اللون حتى أصبحوا مقلدين ولا اعني بهم شعراء البحرين فحسب بل حتى شعراء القطيف، فأنت لاتجد لديهم ابتكارا أو تطويرا على الرغم من كثرة الدواوين التي أصدروها الا نادرا، حتى كأن الله لم يخلقهم الا ليحاكوا هذا الرجل، ويا ليتهم أحسنوا المحاكات، حتى ان أكثرهم يقول القطعة كاملة فلا تجد فيها الا معنى واحدا يكرره الشاعر في كل ابياتها، هذا عن الشعر والشاعر واما الديوان فالكلام عنه صعب ولكن لابد من كلمة تقال وان لم تف بحقه أو بحقي في الكتابة».

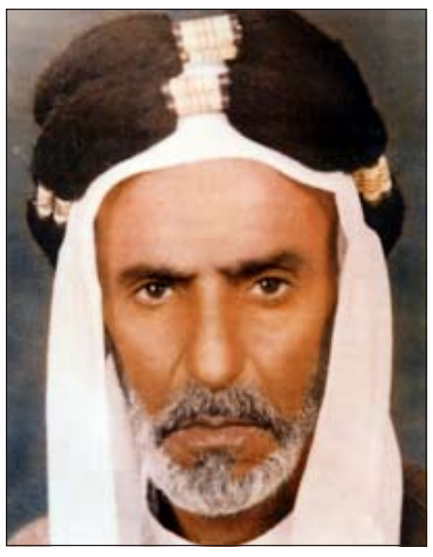

الملا عطية الجمري

الشيخ سليمان المدني

وعالج الديوان أغراضا متعددة، بحسب المدني، بعضها كان قد سبقه أخوه الأول في معالجتها فجاء هو مكملا ومتمما، ولكنه يمتاز على سابقه في محاولات إدخال اصطلاحات شعبية خالصة أكثر مما فعل الجزء الأول وبعضها اختص هو بها، وفي هذا الديوان عالج الشاعر موضوعات سبق ان عالجها في الديوان الاسبق ولكن علاجه لها هنا يختلف عن هناك، ففي الديوان الاسبق يعطيك الشاعر معنى مصبوغا بالألفاظ، اما هنا فهو يرسم لك صورة تاركا اليك استنتاج المعنى المراد منها، وفرق آخر بين العلاجين، فإنه في الديوان الأول يعطي المعنى المراد دفعة واحدة وكأنه يقذفه في ذهنك قذفا اما في هذا الديوان فهو يعطيك معاني جزئية من مجموعها ينتج لك معنى كليا». وضرب الشيخ المدني مثلا على ذلك بمخاطبة زينب لأخيها العباس، إذ يقول الملا عطية في الديوان الأول:

عنكم يبو فاضل ترى قوة خذوني
وكلما جرى دمعي على اخدودي اضربوني
كلكم ضياغم يخوتي واتضيعوني
ضيعة وسفر وايتام ما يخفاكم الحال
عباس خويه امن المدينة ابذمتك جيت
لجلك ولجل حسين عفت الوطن والبيت
واشوف جيت الكربلا ومني تبريت
بعت السهم مني وبليتوني ابهالعيال

بينما يقول في الجزء الثاني من ديوان «الجمرات الودية»:

وصدت لبو فاضل ودمع العين همال
نادت يخويه قوم حادي اضعونا شال
ماضنتي ترضى الحراير تركب اجمال
عقب الخدر للشام تتودى هديه
وقفت على جسمه وهي عبره تناديه
دقعد يمن قطعوا على جوده ايادية
ما ظن يخويه الشام ترضى انشوف وادية
يكرام ما تاخذكم الغيره عليه
بظلالكم عشنا ولا نقدر على السير
والكل منا امعوده ابعزٍ وتخدير
وتركب بليا هودج اعلى الجمل ميصير
وانت الجبتها ابذمتك للغاضريه

ولفت المدني إلى أن كلا القطعتين تعطيان معنى كليا واحدا، ولكن الأولى تعطيك المعنى دفعة واحدة اما الثانية فهي تعطيك اياه على دفعات، في كل دفعة تعطيك معنا جزئيا يكاد يبدو ان لا علاقة له بمراد الشاعر، ومن مجموع هذه الفكر الجزئية تتكون عندك الفكرة العامة، فهذه ترسم لك منظرا مؤلما وهي لاتنطق بكلمة عتاب وانما عذر واعتراف بعدم رضاء المخاطب بكون المتكلم في مثل هذا الموقف ثم تذكر له فضله عليها وتسأل منه ان يتكرم عليها كما كان سابقا، وكل هذا لا يبدو منه عتاب اذا اخذ متجزئاً، ولكن الصورة العامة التي يخلص بها القارئ هو العتاب المر، وقد حاول الشاعر في آخر المقطع أن يساعد القارئ على هذا الفهم وكأنه يقول له لا تغرنك الصورة الجزئية في المنظر ولكن خذه ككل.

كما لم يفت الشيخ المدني أن يشير إلى أن الشاعر حاول في الديوان أن يأتي بفنون جديدة من بحور الشعر وتركيبه، كما حاول ان يجرب أكثر من طريقة لعرض المواضيع التي يعالجها، وقد نجح في هذه المحاولات. وقال إن «الأمثلة على ذلك كثيرة، غير أني لا أطيل بضرب الأمثلة، وعلى القارئ ان يلاحظ، وفي هذا الديوان قطعة هي من أعظم آيات البلاغة في الشعر الشعبي لأنها في واقعها قطعتان، وقد كتبت قطعتين ولو كان الخيار لي لكتبت قطعة واحدة وترك تقديرها للقارئ من دون ان يساعد على ذلك أو ينبه لأن الشيء الذي يفرض نفسه خير من أن يفرض، وهذه القطعة ستفرض نفسها بل ان الديوان كله سيفرض نفسه، وسيهب من خلق لتقليد الناس وسرقة ابتكارهم لمجاراته، وسيعجز حتى عن المحاكات، ويا ليته لا يفعل ذلك وينصرف لصقل موهبته ليكون مبتكرا، ولكن هيهات أن ينال المجد من كان يحب الدعة والراحة».

وختم المدني تقديمه، الذي كتبه في 21 ذوالحجة سنة 1385 هجرية، بالقول: «استميح القارئ عذرا عن التقصير في إيفاء الديوان حقه وعدم كتابة تحليل لكل محتوياته، فقد بقى الديوان عندي اياما كثيرة ولم اكتب عنه لما اصابني من انبهار وعليّ أن أرجعه لصاحبه، كما أرجو ان يعذرني الشاعر ويغفر تطفلي على ديوانه اذا لم اقدّره كما يجب».

عاشوراء... عطاء مستمر

☐ مع إطلالة هذه الأيام من كل عام، يقف العالم من أدناه إلى أقصاه وقفة إكبار وإجلال ليحيي في أبي الشهداء روح البطولة والأريحية والمثل الأعلى الذي ضربه في الفداء والتضحية، حين وقف على ساحة الطف رافعاً روحه على كفيه، جاعلاً من نفسه وذويه قرابين على مذبح الحرية، منادياً بصوت العدالة الإنسانية بحقوق الإنسان الطبيعية في الحياة الحرة الكريمة، فعاش خالداً في قلوب الإنسانية وضمير البشرية طيلة خمسة عشر قرناً من الزمان، وظل دمه الطاهر الذي سطر به تاريخه المشرق على جبين الدهر يروي لنا سر خلوده.

وعلى الأفق من دماء الشهيدين
علي ونجله شاهدان
فهما في أوائل الليل فجران
وفي أمسياته شفقان

ثبتا في قميصه ليجيئا الحشر مستعدياً إلى الرحمن.

حتى ليخطئ من يظن أن الحسين (ع) مات أو قتل يوم الطف بل ولد كما يولد الأبطال حين موتهم وحين استشهادهم مصداقاً لقول الله تعالى: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله مواتاً بل أحياء عند بهم يرزقون...»

وقال تعالى: «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتاً بل أحياء ولكن لاتشعرون».

كذب الموت فالحسين مخلد
كلما مرت العصور تجدد
شهيد العلى ما أنت ميت وإنما
يموت الذي يبلى وليس له ذكر
وما دمك المسفوح إلا قيامة
له كل عام يوم عاشورة حشر
ومادمك المسفوح إلا رسالة
مخلدة لم يخلُ من عصرها ذكر

فدم الحسين عليه السلام لم ولن يجف، وسيظل سيلاً يروي زهرة الحرية ويوقد شعلتها لتكون نوراً وناراً لكل الأحرار والشرفاء في الدنيا، ليعلم الإنسان كيف يكون مظلوماً فينتصر.

وستظل صرخاته المدوِّية تجلجل في أعماق الإنسانية لتوقضها من سباتها لتنتفض على أعدائها الذين نحروا كرامتها على أعتاب دنيا المطامع والأهواء، واحتسوا دماءها في جماجم أبنائها الشرفاء.

وستبقى تلك الصرخات تصمُّ آذان المتكبرين وتقضُّ مضامع المستبدين، ونغمة تطرب لها آذان المستضعفين والمعذبين في الأرض، حتى ليخطئ أولئك الذين يظنون أنهم قد أخمدوا صوت الحرية بإخماد صوته، بل أن صوته لايزال مجلجلاً يصرخ فينا مشيراً لنا أن طريق الكرامة من هنا، وأن طريق العزة من هنا، وأن طريق الكرامة من هنا.

وللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرحة يدق
ومَنْ لم يعانِ صعود الجبال
يعش أبد الدهر بين الحفر

وإن أمة لا تقول للظالم لا، وللباطل لا، أمة تودع منها، وبطن الأرض خير لها من ظهرها.

وليقول لأولئك القابعين في صوامعهم وأديرتهم ويريدون من الدسماء أن تنوب عنهم في كل شيء: «إن الله لايغيروا بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

«ولئن نشعل شمعة خير من أن نلعن الظلام»

وليقول لنا الحياة بلا كرامة كالديمة بلا مطر، وكالزهرة بلا عطر.

وسيظل ترابه الطاهر أريجاً نستنشق منه نسيم الكرامة.

شممن ثراك فهبَّ النسيم
نسيم الكرامة من بلقع
وعفرت خدي بحيث استراح
خد تفرى ولم يضرع
وخلت وقد طافت الذكريات
بصومعة الملهم المبدع
كأن يداً من وراء الضريح
حمراء مبتورة الأصبع
تشير إلى عالم بالخنوع
الضيم ذو شنف مترع

سيبقى الحسين (ع) يعلمنا أن الموت في سبيل الله طريق العزة والخلود وأن الحياة مع الظالمين برماً.

رأى الموت صبراً شعار الكرام
وفخراً يزين لها شأنها
فأبى أن يعيش إلا عزيزاً
أو تجلى الكفاح وهو صريع

«والله لا أعطيكم بيدى إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد».

«هيهات منا الذلة»

«هيهات منا الذلة»

«هيهات منا الذلة»

يعلمنا كيف نبثت على ثوابتنا مهما كانت التحديات، والظروفات والملابسات. حيث لم يكن في المؤمرات ما ينال من عزمه، ولا في المغريات ما يحطّ من عزيمته، فكان كالجبل الأشمّ الذي لا تحركه العواصف، ولا تقلقله القواصف، حتى قال أحد أعدائه مارأيت مكثوراً قط قتل ولده وأهل بيته أربط جأشاً من الحسين بن علي (ع)... إذ كان كلما حمي الوطيس واشتد البأس ازداد وجهه إشراقاً... وكان كلما قدم الضحية تلو الضحية يرمق طرفه إلى السماء قائلاً: «اللهم إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى... حتى جاءت النوبة عليه، فوقف منادياً:

إن كان دين محمد لم يستقم
إلا بقتلي ياسيوف خذيني

فحفظ بيضة هذا الدين، فبعثه من جديد بعد محاولة الأيدى الأموية الآثمة طمسه ليعيد لهم مجدهم الضائع حتى قيل: الإسلام محمدي المبدأ حسيني البقاء.

فإذا بدأ الإسلام في مكة على يد الرسول الأكرم محمد «ص الله عليه وآله وسلم» فلقد عاد مجدداً على يد حفيده الحسين (ع) في كربلاء.

ولئن جاء النبي (ص) وبعث لتحطيم الأوثان البشرية، ولئن تآمرت قريش على حياة النبي (ص) في مكة حتى هاجر منها إلى المدينة، فلقد تآمرت بنو أمية على حياة حفيده الحسين (ع) في مكة حتى هاجر منها إلى أرض كربلاء، لإكمال المسيرة... ووقف يواجه القوة التي لا تقهر وحيداً في معركة غير متكافئة لا عدة ولا عدداً، سطّر فيها أروع البطولات حتى بقيت ملحمته الدامية التي يندى لها جبين الإنسانية وتقوم لها الدنيا ولا تقعد أنشودة في فم الدهر ولحناً تردده الأجيال، يرفع لها في كل وادٍ علم ينصب لها في كل قلب مأتم، حتى كأن كل أرض كربلاء، وكل يوم عاشوراء.

ووقف أعداؤه يضربون المثل في الخسة والدناءة في حربهم له، اخترقوا فيها كل شرائع السماء وقوانين الأرض فقتلوا حتى الرضع من الأطفال، وقطعت الرؤوس، ومثل بالأجساد، وأحرقت البيوت على رؤوس عقائل النبوة وبنات الرسالة... مما وضعهم في قفص الاتهام أمام محكمة الضمير الإنساني تلاحقهم لعنة الدهر وسبّة الأجيال.

جواد منصور الحلواجي